﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام: 1]

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾: مصدر (حَمِدَ يَحْمَدُ حَمْدًا)، وهي أوَّلُ كلمةٍ في كتابِ اللّهِ بعدَ البسملةِ في فاتحة الكتابِ، وجذرُها اللّغويُّ من (حَمِدَ)، والحمدُ نقيضُ الذَّمّ[1]، وهو "الثَّناءُ باللّسان على الجميل، سواء تعلَّقَ بالفضائل كالعلم، أم بالفواضل كالبرّ"[2]، وورد عن ابن سيده تعريفه بأنّه "الوصفُ بالجميل على جهة التّفضيل"[3]، وهو مِن أصحِّ التَّعريفات.

ويقربُ منه ما ذكره ابنُ تيميّة من أنّ الحمدَ هو الإخبارُ بمحاسنِ المحمودِ، مع المحبّة له، ومعناه في الآية: "الحمدُ الكاملُ للّه وحدَه لا شريكَ له، دون جميعِ الأندادِ والآلهةِ"[4].

2) ﴿خَلَقَ﴾: فعلٌ ماضٍ، وهو الجذرُ اللّغويُّ لمصدر (الخَلْق)، ومنه: الخَليقةُ بمعنى الطَّبيعة، والخالقُ بمعنى الصّانع، وخُلُقُ الإنسانِ هو ما كان طبيعةً له، ولأصله معنيان؛ الأوَّلُ تقديرُ الشَّيء، والثّاني ملاستُه، وهو أيضًا السّجيّة، كأنّ صاحبَه قد قُدِّر له[5].

وأجادَ الرّاغبُ في الحديثِ عنه، فذَكر أنّه يُستعملُ "في إبداعِ الشّيءِ من غير أصلٍ ولا احْتِذاء... ويُستعمَل في إيجاد الشّيءِ منَ الشّيءِ"[6]، والخلقُ هنا بمعنى التّقدير[7].

3) ﴿وَجَعَلَ﴾: فعلٌ ماضٍ، وجذرُه اللّغويُّ (جعل)، وهو يأتي على أنحاءَ عدّةٍ، منه اللّازمُ، ومنه المتعدّيّ لواحد واثنين، و(جَعَل) في الآية مِن أفعالِ التَّحويلِ والتَّصييرِ يتعدّى إلى اثنين، ولـ (جَعَلَ) كلماتٌ "غيرُ منقاسةٍ، لا يشبهُ بعضُها بعضًا"، و" وجعلتُ الشَّيءَ: صنعتُه، وهو لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ من "فعلَ" و"صنعَ" وسائر أخواتها.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حمد)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حمد).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 201، والرّاغب، المفردات: (حمد).
(3) ابن سيده، المخصّص: (حمد).
(4) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 6/259، وابن جرير، جامع البيان: 11/247.
(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (خلق).
(7) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/154.

ومعنى (جَعَلَ)، وما تصرّف منها في القرآن يكونُ للتَّحويلِ والتّهيئةِ على وضعٍ، أو للخَلْقِ، وهو تحويلٌ للهيئة بإنشاء هيئةٍ جديدةٍ[1]، ومعنى الجَعْل في الآية: بمعنى الخَلْق؛ أي: وخَلَقَ.

4) ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: جمعُ مؤنَّثٍ سالم، جذرُه اللّغويُّ من (ظلم)، وله أصلان صحيحان، أحدُهما خلاف الضّياءِ والنّورِ، والآخرُ وضعُ الشّيءِ غير موضعه تعدّيًا. والمراد هنا هو الأصل الأوّل. ومعناه المحوريّ "حجب ما ينبغي أو ما يُستَحقّ؛ أي: منعه أو انتقاصه، كمنعِ الضَّوءِ في حالةِ الظُّلمةِ، وكمنعِ المطرِ عنِ الأرضِ المظلومةِ"[2].

والمقصود بالظّلمات في قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾؛ أظلم اللّيل، وأنار النّهار[3].

5) ﴿وَٱلنُّورَۖ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ، الجذرُ اللّغويُّ من (نَوَر)؛ وهو الضّياءُ بصورة عامّة، والأصل في معناه "إضاءةٌ واضطرابٌ وقلّةُ ثبات، منه: النّور والنّار، سُمّيا بذلك من طريقة الإضاءة؛ ولأنَّ ذلك يكون مُضطربًا سريعَ الحركة"، وهو الضَّوءُ المنتشرُ الّذي يعينُ على الإبصار[4].

6) ﴿يَعۡدِلُونَ﴾: فعل مضارع مُسندٌ إلى الجماعة، جذرُه اللّغويُّ من (عَدَلَ)، والعدلُ ما رضي منَ النّاس منَ القول والحكم، فـ" العدلُ منَ النّاس المرضيُّ المستوي الطَّريقة، يُقالُ: هذا عَدْلٌ، وهما عَدْلٌ، والعدلُ: الحكمُ بالاستواء، ويُقالُ للشَّيء يساوي الشَّيء، وقال أيضًا في تفسير (العدل): إنّه "نقيضُ الجَوْرِ، تقول: عَدَلَ في رعيّته، ويومٌ معتدلٌ، إذا تساوى حالا حَرِّهِ وبَرْدِهِ". و"العدالةُ والمعادلةُ: لفظٌ يقتضي معنى المساواة... لكنّ العدلَ يُستعملُ فيما يُدرَكُ بالبصيرة كالأحكام"[5]، ومعنى المساواة منطبقٌ على المفردةِ الواردةِ في الآية؛ إذ إنَّ الكافرين قد ساووا آلهتَهم المزعومةَ في العبادة والتّعظيم باللّه الخالقِ المُنعمِ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الثّناءُ الجميلُ على اللّه تعالى بكمال الحمد للّه، وهو المُستحقُّ لكلِّ أنواعِ الحمدِ ومراتبِها، فهو الّذي قدَّر إيجادَ السّماواتِ والأرضِ، وصيَّر في الكون الظّلماتِ والنّورَ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جعل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظلم).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/144.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نور).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عدل).

وتعاقبَ اللّيلُ والنَّهارُ، فما لهؤلاء الكافرين يشركون باللّه؛ فيساوون الخالقَ العظيمَ بهذه الآلهةِ المزعومةِ في العبادةِ والتّعظيم، مع عظيم دلائلِ الخالقِ القاطعةِ بقدرته وعلمه واستحقاقه العبوديَّة!

لا يعدِلُ اللهَ أحدٌ في استحقاقِ جميعِ صفاتِ الكمالِ، ونُعوتِ العظَمَةِ والجلالِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَراعَةُ الاستهلالِ في افتتاحِ السُّورة:

في افتتاح سورةِ الأنعام بجملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حسنُ استهلالٍ، وبراعةٌ في المَطلَع؛ حيث إنَّ ابتداءَ السّورة به يَلفتُ الانتباهَ إلى الإيجاد والإمداد، وكفى بهما نعمتين، في كلٍّ منهما نِعَمٌ كثيرةٌ، قد يغفُلُ الإنسانُ عنها؛ لاعتياد مشاهدتِها، ومنها خلقُ السّماواتِ والأرضِ، وجعلُ الظّلماتِ والنّور.

المحامِدُ كُلُّها للهِ، في مبتدَأِ الأمْرِ ومُنْتَهاهُ

دلالاتُ (أل) في لفظ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾:

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جملةٌ، وردَت بهذا التّركيبِ في مَواضِعَ كثيرةٍ في سبعَ عشرةَ سورةً منَ القرآن الكريم[1]، كلُّها مكّيَّة[2]، وهذا هو الموضعُ الثّاني بعد فاتحةِ الكتابِ. والألفُ واللّامُ في الحمد تحتملُ دلالاتٍ عدّةً؛ أرجحُها أن تكونَ للاستغراق، وهو رأيُ ابن عطيّة[3]؛ فإنّ الحمدَ كلَّه للّه؛ فهو صاحبُ الفضلِ والمنّةِ في كلّ نعمه وآلائه، وذكر البيضاويّ أنّ الحمدَ كلَّه للّه؛ في إشارةٍ منه إلى ترجيحِ جانبِ الاستغراق[4]

تَعْريفُ اللَّفظِ باسْتِغراقِ الجِنْسِ والعهدِ والكَمالِ، فصاحةٌ وجَمالٌ

قال القشيريّ: حقيقةُ (الحمد) الثَّناءُ على المحمود بذكر نعوتِه الجليلةِ، وأفعالِه الجميلةِ، واللّام هاهنا للجنس، ومقتضاها

(1) وردَت جملةُ (الحمد لله) ثلاثًا وعشرين مرّة. عبد الباقي، المعجم المُفهرس: (حمد).

(2) وهي سور: الفاتحة: 2، الأنعام: 1 - 45، الأعراف: 43، يونس: 10، إبراهيم: 39، النّحل: 75، الإسراء: 111، الكهف: 1، المؤمنون: 28، النّمل: 15 - 59 - 93، العنكبوت: 36، لقمان: 25، سبأ: 1، فاطر: 1 - 34، الصّافّات: 182، الزّمر: 29 - 74 - 75، غافر: 65.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/66.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/27.

الاستغراق، فجميعُ المحامدِ للّه سبحانه إمّا وصفًا وإمّا خلقًا، له الحمدُ لظهورِ سلطانِه، وله الشّكرُ لوفورِ إحسانِه، والحمدُ للّه لاستحقاقِه لجلالِه، والشُّكرُ للّه لجزيلِ نوالِه، وعزيزِ إفضالِه[1].

وهي "للجنس[2] تَنْبيهًا أنَّ الحمدَ كلَّه في الحقيقة لا يستحقُّ سواه، وإنَّ كلَّ حمدٍ لغيره فهو عاريةٌ له، واللّهُ تعالى هو المُستحقُّ له في الحقيقة"[3]، وهذا تصريحٌ بأنَّ اللّه تعالى هو الّذي يستحقُّ الحمدَ بأجمعه؛ لأنَّ الألفَ واللّامَ في (الحَمد) لاستغراق الجنس[4].

وتَحتملُ أن تكون (أل) عهديّةً على معنى أنّه "الحمدُ الّذي حَمِدَ به نفسَه، وحَمِدَه به أولياؤه"[5]. وقد تكون (أل) للكمال، وهو تخريجٌ ينبني على قولٍ لسيبويه في (أل) الدّاخلة على الصّفات[6].

نُكتَةُ التَّعبيرِ بالحَمدِ دُونَ الشُّكرِ والمَدحِ في الآية الكريمة:

اختيرَ لفظُ الحَمدِ دونَ الشُّكرِ؛ لكونِ الحَمدِ يعُمُّ الفضائلَ والفواضِلَ، بخلاف الشُّكرِ؛ فإنَّه خاصٌّ بالفواضل، فأوثرَ اللَّفظُ الأَعَمُّ.

الحَمدُ حُبٌّ وتعظيمٌ، واشتمالٌ على فَضائِلَ وفَواضِلَ

وجاء التَّعبيرُ بالحَمدِ دونَ المَدحِ، مع أنَّ المدحَ أَعَمُّ؛ لكونِه قَد يَعرى عَنِ المحبَّة والتَّعظيم، والأبلَغُ في الثَّناءِ اختيارُ اللَّفظِ الّذي يكون نصًّا في الحبِّ والتَّعظيم؛ وذلك هو لفظُ الحَمدِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في جملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ جملةٌ اسميّةٌ منَ المبتدأ والخبر[7]، وأوثر التّعبيرُ بالاسميّة على الفعليّة في قول: (أحمدُ اللّه) لجملة أمور، منها:

استحقاقُ الحَمْدِ واستغراقُهُ ودوامُهُ مِن نِعَمِ اللهِ

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/45.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/52، والكرمانّي: غرائب التّفسير: 1/97.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/52.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/265.
(5) الواحديّ، البسيط: 482 - 483/1.
(6) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/8.
(7) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/61.

أولاً: التّعبيرُ بالاسميّة فيه معنى استحقاق الحقّ ﷻ للحمد، قبل أن يحمدَه الخلقُ، وفيه استغراقُ المحامد كلِّها.

والتّعبيرُ بالفعليّة (أحمدُ اللّه) فيه إيهامٌ بالقدرة على توفية اللّهِ حقّه منَ الحمد، وليس ذلك بكائنٍ من لدُنِ البشر.

ثانيًا: ممّا قرّره اللّغويّون والبلاغيّون[1] أنَّ الجملةَ الاسميّةَ دالَّةٌ على الثُّبوت والاستقرار، وأنّ الجملةَ الفعليّةَ تدلُّ على التَّجدّدِ والحدوثِ، وممّا يناسبُ هذا المقامَ التعبيرُ بالجملة الاسميّةِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، "وإنّما عدل عنه إلى الرّفع؛ ليدلّ على عمومِ الحمدِ وثباتِه، دونَ تجدّدِه وحدوثِه. وفيه تعليمُ اللّفظ، مع تعريض الاستغناءِ؛ أي: الحمد للّه، وإن لم تَحمدوه، ولو قال (أحمد اللّه) لما أفادَ هذا المعنى"[2].

بلاغةُ القولِ بخبريَّةِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ لفظًا ومعنًى:

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، تَحتملُ هذه الجملةُ أن تكونَ إنشائيّةً من جهة المعنى؛ "لحصول الحمد بالتّكلّم بها مع الإذعان لمدلولها"[3]، "يقول: أخلصوا الحمدَ والشّكرَ للّذي خَلَقَكم، أيّها النّاس، وخلقَ السّماواتِ والأرضَ"[4].

استحقاقُ اللهِ الحمْدَ أصالةً، قبل أن يَحْمَدَهُ الحامدونَ إقرارًا

وتَحتملُ أن تكونَ خبريّةً من جهة اللّفظِ والمعنى، وهو أبلغُ من سابقه؛ لأنَّ القولَ بإنشائيتها يُلزمُ الحمدَ عند نطقها، أمّا الخبريّةُ فالحمدُ واقعٌ قبلَ نطقِها، فالحقُّ ﷻ مُستحِقٌّ للحمد قبل أن يحمَدَه الحامدون، وقال ابنُ عاشور: "ثمَّ إنَّ جملةَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ هنا خبرٌ لفظًا ومعنًى؛ إذ ليس هنا ما يَصرِفُ إلى قصدِ إنشاءِ الحمدِ بخلاف ما في سورة الفاتحة؛ لأنَّه عُقِّبَ بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: 5]"[5].

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 1/76، وحسن، النّحو الوافي: 2/145.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/53.
(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/8.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/247.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/125.

بلاغةُ القَصْرِ في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:

الحمْدُ بكمالِه وتمامِهِ، لا يستحِقُّهُ إلَّا اللهُ بعظمتِهِ وجلالِهِ

في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جملةٌ تفيدُ استحقاقَ الله تعالى الحمدَ وحدَه دونَ غيره؛ لأنّها تدلُّ على الحصر، واللّام لتعريف الجنس، فدلّت على انحصار استحقاقِ هذا الجنسِ لله تعالى، "قَصْرًا إضافيًّا؛ للرَّدِّ على المشركين الَّذين حَمِدوا الأصنامَ على ما تخيَّلوه مِن إسدائها إليهم نِعمًا ونصرًا وتفريجَ كربات"[1]، وكونها للقَصْر الإضافيّ على معنى: أنَّ الحمدَ كلَّه لا يستحقُّه أحدٌ إلّا الحقَّ ﷻ.

سرُّ إيثارِ تركيبِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، على: (لله الحمد):

الحمْدُ فيه تدريبٌ على الشُّكرانِ، لا يستحِقُّهُ إلَّا ربُّ الأكوانِ

جاء قوله تعالى هنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وورد في سورة الجاثية: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الجاثية: 36]، والفرقُ بينهما أنّ جملةَ (الجاثية) فيها معنى القصرِ بتقديم الخبرِ على المبتدأ، وليس كذلك في آية الأنعام؛ لأنّ الغرضَ منها تعليمُ العبادِ الثّناءَ عليه سبحانه بما هو أهلٌ له، ولأنّ آيةَ الجاثية "على تقدير الجوابِ بعد إرغامِ المُكذِّبِ وقهرِه، ووقوعِ الأمرِ مُطابقًا لأخبار الرّسول ﷺ، وظهورِ ما كذّبَ الجاحدُ به، فعند وضوحِ الأمرِ كأن قد قيل: لمَنِ الحمدُ، ومَن أهله؟ فكان الجوابُ على ذلك، فقيل: فلله الحمدُ، نظيرُ هذا قولُه تعالى: لمَنِ الملكُ؟ ثمّ قال: لله الواحدِ القهّارِ"[2].

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ: ﴿لِلَّهِ﴾، وأثرُها في السِّياقِ:

لا يختصُّ اللهُ إلَّا بما يَليقُ بجلالِهِ وكمالِهِ

في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: لفظ الجلالة داخل عليه حرف الجرِّ اللّام، وهو مُتعلِّقٌ بخبرٍ محذوفٍ، وهذه اللّام تحتملُ أن تكونَ للاستحقاق، أو المُلك، أو الاختصاص[3]؛ إذ دلّت على أنّ جميعَ المحامدِ مختصَّةٌ به تعالى؛ إذ هو مُستحِقٌّ لها[4] ﷻ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/126.
(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/12.
(3) الواحديّ، البسيط: 1/483، والقنّوجيّ، فتح البيان: 11/161.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/153.

فكونها للاستحقاق؛ فلأنّ هذه اللّام حقّها أن تقع بين معنىً وذات[1]، فالمعنى هنا الحمد، والأخرى الذّات العليَّة، قال ابن عاشور: "جملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ تفيد استحقاقَ اللّه تعالى الحمدَ وحدَه دون غيره"[2].

الغرضُ مِن ذِكْرِ اسمِ (الله) في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

التَّلذُّذُ والتَّبرُّكُ باسمِهِ تعالى عِبادةٌ وقُرْبٌ

لمّا كان الغرضُ منَ الحمد إثباتَ اختصاصِ اللّه به وحدَه، واستحقاقه به دون سواه - كان ذكرُ اسمِ الجلالةِ مُقترنًا بالحمد؛ لتعلّقه بالألوهيَّةِ، والوحدانيَّةِ، واستحقاقِ العبوديَّةِ، ولمناسبته استغراقَ جنسِ الحمدِ؛ إذ إنَّ اسمَ الجلالة يجمعُ كلَّ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ.

وهذا هو السّرُّ في اقترانه بلفظ الحمدِ دون غيره، كالرّحيم أو الرّحمن أو سواهما؛ لكونه دالًّا على الجمال والكمال، وعلى أنّ الحمدَ مُستحِقٌّ لذاته تعالى؛ ولأنّه هنا يرفعُ توهّمَ استحقاقِ الحمدِ لصفةٍ دون أخرى، فلو عُلِّقَ الحمدُ بالرّحمن؛ لتوهّمَ مُتوهّمٌ أنّه تعالى مُستحِقٌّ للحمد لرحمته دونَ غفرانِه وكرمِه وعظمتِه، وهلمّ جرًّا، وهو غيرُ مراد؛ فإنّ الحمدَ استحقاقٌ له تعالى بجميع أسمائِه وصفاتِه؛ إذ إنّ تعليقَ حكمٍ بلفظٍ مُشتقٍّ مُشعرٌ بعليّةِ ما منه الاشتقاق[3].

فائدةُ وصفِ اسمِ الجلالةِ بالاسم الموصولِ:

استحضارُ عظمةِ قدرةِ اللهِ تعالى تحقيقٌ لعبوديَّتِهِ

وُصِفَ اسمُ الجلالة بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ توصُّلًا به إلى بيان أثرٍ من آثارِ قدرتِه، وعظيمِ آلائِه بأن يحمدَه الحامدون على ما أنعم عليهم، بأن خلقَ لكم "السّماواتِ الّتي تُظِلُّكم، مشتملةً على الأنوار

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 275.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/125.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 1/226.

الّتي تضيءُ عليكم، ومحلًّا لنزولِ الرّحماتِ والأمطارِ عليكم، وخلقَ الأرضَ الّتي تُقلُّكم، وفيها نباتُ معاشِكم في العادة"[1].

سرُّ التّعبيرِ بالخَلْقِ والجَعْلِ، واختصاصُ كُلٍّ في الآية الكريمة:

الـخَـلْـقُ: قُـدرةٌ وإبـــــداعٌ، والــجَــعْــلُ: تسخيرٌ وانتِفاعٌ

في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾، جاءَ بفعل الخلقِ مُقترنًا بالسّماوات والأرض، هنا وفي كلِّ موضعٍ في القرآن الكريم[2]، وجاء بفعلِ الجعلِ مع الظّلمات والنّور هنا، وليس له نظيرٌ في القرآن الكريم، والسّرُّ في ذلك محاجّةُ المشركين بالاستدلال بآثار صنعةِ الله، وإبطالِ ما هم عليه من شرك، وأنّ الخلقَ فيه معنى التّقدير، وفي الجعل معنى التّضمين، كإنشاء شيءٍ من شيء، أو تصيير شيء شيئًا، أو نقله من مكان إلى مكان؛ لأنّ الظّلماتِ منَ الأجرامِ المتكاثفةِ، والنّورُ منَ النّار[3].

والتّفرقةُ "بين فعلِ (خَلَقَ)، وفعلِ (جَعَلَ) هنا معدودٌ من فصاحةِ الكلماتِ، وإنَّ لكلِّ كلمةٍ مع صاحبتها مقامًا، وهو ما يُسمَّى في عُرفِ الأدباء برشاقة الكلمةِ، ففعلُ (خَلَقَ) أليقُ بإيجاد الذَّوات، وفعلُ (جَعَلَ) أليقُ بإيجاد أعراضِ الذَّواتِ وأحوالِها ونظامِها"[4].

ولمّا كان تقديرُ العوالم العلويَّةِ ثابتًا قبلَ خلقِ الإنسانِ، وكان إنشاءُ الظّلماتِ والنّورِ مُتعلِّقًا بالمخاطَبين – سواء أكان المرادُ بهما الحقيقة أم المجاز – قابلًا للتّغيير والتّحويل؛ ناسب كلُّ فعلٍ ما اقترن به.

سرُّ تقديم (السّماواتِ) على (الأرض):

الـسَّـمـاوات رمـزٌ للعظمة والسُّموِّ، ومورِدٌ للتّنزُّل بالوحي المتلوّ

قُدِّمَ ذكرُ السّماواتِ على الأرض في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ لمجموعةٍ منَ الأسباب، هي:

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/96.

(2) اقترن الفعلُ (خلق) بالسّماوات والأرض، في تسعة وعشرين مَوضِعًا، وجاء مرّةً واحدةً مع السّماوات دونَ الأرض في الآية (10) من سورة لقمان.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/320.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/127.

أوّلًا: جريًا على عادة القرآنِ الكريمِ؛ فإنّ القرآنَ قدَّم ذكرَ السّماواتِ على الأرض بما يزيدُ على مئة آيةٍ، ولم يتأخَّر ذكرُها إلّا في آيتين لموجبٍ دلاليّ.

ثانيًا: تقديم السّماوات على الأرض هنا من باب التّقدّم الزّمنيِّ في الخلق؛ فقدّم الأسبق خلقاً، وهي السّماوات[1]؛ ولا سيّما أنّهما واردان في سياقِ الخلقِ؛ بدلالةِ الفعلِ ﴿خَلَقَ﴾؛ لأنّه منَ المهمِّ مراعاةُ السّياق الّذي تجري فيه الآية.

ثالثًا: تقديمُ الأعظم والأعلى والأشرف، فالشّأنُ أن يتقدَّم ذكرُ الأعظم والأعلى مكانًا على غيره، إلّا إن كان هناك ما يوجبُ خلافَه؛ فقدّمَ ذكرَ السّماواتِ على الأرض؛ باعتبارها الأشرف[2]؛ لما تحويه منَ المخلوقات العظيمةِ كالعرش.

فالأرضُ بالنّسبة إلى السّماوات كالخرزة في العقد، ومعلومٌ أنّ الآياتِ في السّماوات أعظمُ منها في الأرض؛ لِسعتِها، وعِظَمها.

رابعًا: التّقديمُ للأهمّيّة والقداسة، فالسّماواتُ فيها العرشُ والكرسيُّ، والأرواحُ تصعدُ إليها، وفيها الجنّةُ والنّارُ، وسوى ذلك منَ الغيبيات.

سرُّ جمعِ (السّماواتِ)، وإفرادِ (الأرضِ):

صيغةُ اللّفظ إفرادًا وجمعًا، تعتمِدُ على الخفَّةِ والدِّقَّةِ ومناسبةِ السِّياق

تدبّرَ بعضُ العلماءِ ذلك، وحاولوا بيانَ سرِّ جمعِ السّماواتِ هنا، وفي بعض المواضعِ، وإفرادِها في مواضعَ أُخَرَ، وإفرادِ الأرضِ في القرآن الكريم كلِّه، ويَتَّضِحُ بعضُ ما ذكروه فيما يأتي:

أوّلاً: لفظُ (أرض) بمقابلة لفظِ (السّماء أو السّماوات) تعني الوصف، مثل: (تحت وسُفل)، فسماءُ كلِّ شيء أعلاه، وأرضُه

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/126.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/153.

أسفلُه، ولا يُقصَدُ بها الجِرمُ أو الذّاتُ؛ فمن ثَمَّ جيء به مُفردًا؛ ليجري مَجرى المصدر لفظًا ومعنىً، ولأنَّ الجمعَ ثقيلٌ، سواء أكان جمعَ تكسير: (آرُض كأفلُس، أو آراض كأجمال، أو أُروض كفُلوس)، أو ملحقًا بجمعِ المذكَّر السّالم: (أَرَضون وأَرَضين).

ولمّا أرادَ القرآنُ تعدُّدَها قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلاق: 12]، وتأمَّلْ كيف جاءَت مجموعةً في الحديث الشّريف في قوله: «طوّقَه من سَبع أَرَضين»[1]؛ لمّا اعتمد الكلامَ على ذات الأرضين، دونَ الوصفِ لها بتحتٍ أو سُفلٍ في مقابلةِ فوقٍ وعُلوٍّ، فاستثقلوا هذا اللّفظَ؛ إذ ليس فيه منَ الفصاحةِ والحسنِ والعذوبةِ ما في لفظ (السَّماوات)، وأنت تجدُ السّمعَ يَستَثقِلُهُ بقدر ما يستحسنُ لفظَ (السّماوات)، ولفظ (السّماوات) يلجُ في السّمع بغير استئذان؛ لنصاعتِه وعذوبتِه.

ثانيًا: قد يكون لإفرادِ الأرضِ مع جمعِ السّماواتِ وجهٌ آخر، إذا أُريد بها الجِرمُ والذّاتُ؛ للإشارة إلى وحدتها في الجملة بالنّسبة إلى عالم السّماواتِ، وإن كانتِ الأرضُ طبقاتٍ؛ وللإشارة إلى أنَّ ما في الأرضِ ليس إلّا مظهرًا من حركات السّماء، وأنَّ الأرضَ شيءٌ صغيرٌ بجوار السّماوات وما فيها.

ثالثًا: أنَّ لفظَ (السّماوات) بالجمع، ولفظ (السَّماء) بالإفراد لم يأتِ في القرآن إلّا مناسبًا للسّياق؛ فإذا أراد تعدُّدَ ذاتها جُمِعَ، وإذا أرادَ الوصفَ بالعُلوّ والفوق جاء مفردًا، ولكلٍّ سياقُه المناسبُ[2].

دِقَّةُ النَّظمِ القُرآنيِّ في التَّصَرُّفِ في الألفاظِ تَقديمًا وتَأخيرًا

المتشابِهُ اللَّفظيُّ بين آية سورة الأنعامِ، وآية سورةِ طهَ:

قالَ اللهُ ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وقال

(1) أخرجه البخاريّ، الحديث رقم: (2452)، ومُسلم، الحديث رقم: (1610) باختلافٍ يسيرٍ.
(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 120 - 123/1، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/47، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/355، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/935.

سُبحانَهُ: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾ [طه: 4]، ووجهُ الاختلافِ بينَ الآيتينِ أنَّ السَّماواتِ قُدِّمت في آيةِ الأنعامِ، وأُخِّرت في سورةِ طه، وذلك أنَّ آيةَ الأنعامِ صُدِّرت بقولِ اللهِ ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فلمّا كان الحَمدُ أكثرَ تعلُّقًا بما كانَ عظيمًا شريفًا، وكانت السَّماواتُ أعظمَ وأشرفَ؛ لخلوِّها ممَّن يعدِلُ عنِ التَّوحيد إلى الشِّركِ؛ فكان الأنسبُ تقديمَ السَّماواتِ، بخلاف سورةِ طه، فقد صُدِّرت بقولِ اللهِ تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾، فلمّا كان التَّنزيلُ أكثرَ تعلُّقًا بأهلِ الأرضِ وبتشريفِ المُنزَلِ عليهِ وهو النَّبيُّ ﷺ؛ كان الأنسبُ تقديمَ الأرضِ، ووُصِفَتِ السَّماواتُ بـ (العُلَى)؛ لأنَّ المرادَ الدِّلالةُ على علوِّ المُنَزَّلِ والمُنَزَّلِ عليه، ولمُراعاةِ التَّناسُبِ الصَّوتيّ لآيِ القرآنِ الكريمِ.

المُتَشابِهُ اللَّفظيُّ:

ذِكرُ اللَّفظِ القُرآنيّ أو حَذفُهُ، مَنُوطٌ بملاءمَةِ السِّياق ومُقتضَى الحالِ

قال اللهُ سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وقال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: 73]، فقد خُصَّتِ الآيةُ الثّانيةُ مِنَ الأنعامِ بتقييدِ فِعلِ الخَلقِ بالحقِّ دونَ الآيةِ الأولَى منها؛ لأنَّ الأولَى صُدِّرت بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فلمّا كان حمدُ اللهِ ﷻ لا يكونُ إلّا بما هو حقٌّ؛ استُغنيَ بذلك عن تقييده بهِ، بخلافِ الآيةِ الثّانيةِ، فإنَّها في سياقِ إنكارِ ما يُدعَى مِن دونِ اللهِ ﷻ، وذلك المدعوُّ من دونِ اللهِ سُبحانه باطلٌ وليس حقًّا، فكان الأنسبُ تقييدَ خَلقِ السَّماواتِ والأرضِ بكونِهِ ليس بالباطِلِ، بَل بالحقِّ.

النُّورُ: إشعاعٌ غامِرُ السَّريانِ، والظُّلماتُ: موجٌ يلفُّ بعتَمَتِه الأكوانَ

بلاغةُ إفرادِ (النُّورِ) وجمعِ الظُّلماتِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أفرد النّورَ، وجمعَ الظّلماتِ، وسرُّ ذلك أنّه أراد بالنّور جِنْسَه، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ [الحاقة: 17]، "أو لأنّ الظّلماتِ كثيرةٌ؛ لأنّه ما من جنسٍ من

أجناسِ الأجرامِ إلّا وله ظِلٌّ، وظِلُّه هو الظُّلْمةُ، بخلاف النّور فإنّه من جنسٍ واحدٍ، وهو النّار"[1].

دلالةُ لفظَي (النُّورِ) و(الظُّلماتِ)، وأثرُ تنوُّعِ معانيهما في السِّياق:

طـريـقُ الـنُّـور واحدٌ، ومسالكُ الظُّلماتِ شتَّى

تَحتملُ لفظةُ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ أن تكونَ بمعنى الكفرِ أو الجهلِ، ويَحتملُ أن يكونَ النّورُ بمعنى الإيمانِ أو العلمِ[2]، وهو تفسيرٌ يعتمدُ على الجانب المعنويّ؛ أي: أنّه لا يعني بالنّور الضّوءَ المادّيَّ، كما لا يعني بالظُّلمات الظّلامَ المادّيَّ، فإفرادُ النّور لأنّه طريقُ الحقِّ وهو الإسلام، وهو واحدٌ غيرُ مُتفرِّقٍ أبدًا، مهما بدا ذلك من تعدُّدِ المذاهبِ والآراءِ والاجتهاداتِ؛ لأنّ طريقَ الإسلامِ والهدى واحدٌ، وطرقَ الضّلالِ كثيرةٌ[3]، فهي طرقُ الغَوايةِ والباطلِ، والّتي عبّر عنها بصيغة الجمعِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ فالشّيطانُ يعرضُ أمامَ ابنِ آدم مختلفَ الطّرقِ الباطلةِ ليغويه، فتارةً بالمال، وتارةً بالنِّساء، وتارةً بالجاه، وتارةً بالمنصب، ولو أردنا استقصاءَ طرقِ الباطلِ الّتي عبّرَ عنها بالظّلمات لما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، أمّا طريقُ الحقِّ والإسلامِ فهو واحدٌ، وآيةُ ذلك كلّه ما أُثر عنِ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام في الحديث: «خطَّ رسولُ اللّهِ ﷺ خطًّا بيده، ثمَّ قال: هذا سبيل اللّه مُستقيمًا، قال: ثمَّ خطَّ عن يمينه، وشماله، ثمَّ قال: هذه السُّبلُ، ليس منها سبيلٌ إلّا عليه شيطانٌ يدعو إليه، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: 153]»[4]. فانظرْ كيف جعلَ لطريق اللّه خطًّا واحدًا، وجعلَ لِطُرقِ الشَّيطان خطوطًا متعدِّدةً، فهذا الخطُّ الواحدُ هو النّورُ، والمتعدِّدةُ هي الظُّلماتُ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/321.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/126.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2237.
(4) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (4437)، والنّسائيّ، السّنن الكبرى، الحديث رقم: (11174)، والدّارميّ، سنن الدارمي، الحديث رقم: (202).

سرُّ تقديمِ لفظ (الظُّلماتِ)، على لفظ (النُّورِ)، في سيَاقِ الآية:

العـدَمُ في المُـحـدَثـات، مُـتـقـدِّمٌ على الوجود في كلِّ مُحدَثٍ موجودٍ

تقدّمَ لفظُ الظّلماتِ على لفظ النّورِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ لِسَبَبٍ؛ وهو "أنّ الظُّلمةَ عبارةٌ عن عدمِ النّور عنِ الجسم الَّذي مِن شأنه قبول النّور، وليست عبارةً عن كيّفيَّةٍ وجوديَّةٍ مضادَّةٍ للنّور... وإذا ثَبَتَ هذا فنقول: عدمُ المُحدَثات مُتقدِّمٌ على وجودها، فالظُّلمةُ مُتقدِّمةٌ في التَّقديرِ، والتَّحقُّقِ على النّور، فوجب تقديمُها في اللَّفظ"[1].

تقدُّمُ الظُّلماتِ على النُّور من بـاب تـقـديـم الكثرةِ على القلّةِ

عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾، فإنّه لم يرد في القرآن الكريم إلّا على هذه الصّورة، "وحكمةُ ذلك أنَّ النّورَ شيءٌ واحدٌ، وإنْ تعدَّدَت مصادرُه، ولكنَّه يكون قويًّا، ويكون ضعيفًا، وأمّا الظُّلمةُ فهي تحدُثُ بما يَحجُبُ النّورَ منَ الأجسام غير النَّيِّرة، وهي كثيرةٌ جدًّا"[2]، فهو من بابِ تقديمِ الكثرةِ على القلّةِ، وهو واقعٌ كثيرًا في آي الذِّكر الحكيم.

الظُّلماتُ أسبقُ مـنَ الـنُّـور في جانبها المعنويِّ

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾: تَحتملُ الظُّلماتُ والنّورُ جانبًا معنويًّا، وهو الضَّلالُ والهدى، فإن كان كذلك فالظُّلماتُ في جانبها المعنويّ أسبقُ منَ النّور، "فإنَّ نورَ العلمِ والهدايةِ كَسْبيٌّ في البشر، وما كان غيرَ كَسْبيٍّ في ذاته كالوحي فتلقّيه كسبيٌّ، وفَهمُه والعملُ به كَسْبيّان، وظلماتُ الجهل والأهواء سابقةٌ على هذا النّور، فالرَّسولُ لا يولَدُ رسولًا، وإنَّما يُؤتَى الرِّسالةَ إذا بلغَ أشدَّه واستوى، والعالمُ لا يولَدُ عالمًا، ولا الفاضلُ فاضلًا"[3]، وقد وردَ في الحديث الشّريفِ «إنَّما العِلمُ بالتَّعلُّم»[4].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 159 - 160/12.
(2) رضا، تفسير المنار: 7/245.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/246.
(4) أخرجه البخاريّ مُعلَّقًا بصيغة الجَزْم: كتاب العلم، باب رقم (10)، وأخرجه موصولاً الطّبرانيّ: 19/395، الحديث رقم: (929)، والبيهقيّ، المدخل إلى السّنن الكبرى، الحديث رقم: (352) باختلافٍ يسيرٍ، وحَسَّنَهُ الحافظ في (الفتح).

إيثارُ الظُّلماتِ والنُّورِ بالذِّكر دون غيرهما:

الظُّلماتُ والنّورُ منَ الأعراضِ والأحوالِ في حياةِ الإنسانِ، وهناك أعراضٌ أخرى كثيرةٌ، لكنّه آثرَ هنا ذكرَ هذين العَرَضَين "دونَ غيرهما منَ الأعراض إيماءً وتعريضًا بحالَي المُخاطَبين بالآية مِن كُفرِ فريقٍ، وإيمانِ فريقٍ، فإنَّ الكُفرَ يشبهُ الظُّلْمةَ؛ لأنّه انغماسٌ في جهالةٍ وحَيرةٍ، والإيمانَ يشبهُ النّورَ؛ لأنَّه استبانةُ الهدى والحقِّ"[1]؛ فتناسبَ كلُّ فعلٍ مع قرينِه.

تعريضٌ بحالَي المُخاطَبين بالآية من كفرِ فريقٍ وإيمانِ فريقٍ

دلالةُ (ثمّ) على جملةٍ من المعاني في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الأصل في (ثمّ)، أنّها "حرفُ عطفٍ يقتضي ثلاثةَ أمورٍ: التَّشريكُ في الحكم، والتَّرتيبُ، والمهلةُ"[2].

تعدُّدُ معاني حرفِ العطفِ (ثمّ)، ينفسِحُ به السّياقُ لدلالاتٍ شتَّى

ويرى الزّمخشريُّ أنَّ معنى "ثمَّ" هنا الاستبعاد؛ أي: استبعادُ أن يعدلوا به بعدَ وضوح آيات قدرته[3]، فجيء بكلمة (ثمّ) الّتي للتَّراخي؛ دلالةً على الاستبعاد.

و﴿ثُمَّ﴾ هنا "دالَّةٌ على قبح فعل الَّذين كفروا؛ لأنّ المعنى أنَّ خلقَهُ السّماواتِ والأرضَ وغيرَهما قد تقرّر، وآياته قد سطعَت، وإنعامَه بذلك قد تبيّن، ثمّ بعدَ هذا كلّه عَدَلوا بربّهم، فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتُكَ، وأكرمتُكَ، وأحسنتُ إليك، ثمّ تشتمني؛ أي: بعدَ مهلةٍ من وقوع هذا كلّه، ولو وقعَ العطفُ في هذا ونحوه بالواو لم يلزمِ التّوبيخَ كلزومه بـ (ثُمَّ)"[4].

وتَحتملُ ﴿ثُمَّ﴾ هنا التَّعجيبَ من أمر هؤلاء، بأنّهم على الرّغم من ظهور آياته تعالى في الخلقِ والجعل؛ عَدَلوا عنِ الإيمانِ به وعبادته، "وذلك شأنُ (ثمَّ) إذا وردت عاطفةً جملةً على أخرى، فإنَّ عدولَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/127.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 158.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/321.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/226.

المشركين عن عبادة الله، مع علمهم بأنّه خالقُ الأشياءِ، أمرٌ غريبٌ فيهم، أعجبُ مِن علمهم بذلك"[1].

سِرُّ تَعريفِ المُسنَدِ إليهِ بالمَوصولِيَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في ثنايا الآية الكريمة:

الـكُـفـرُ سَـبَـبٌ لـلـفَـسـادِ، وتـطـاولٌ على مقام ربِّ العبادِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليه ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالموصوليَّةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾؛ للإشعارِ إلى نَوعِ الخَبرِ المَحكومِ بِهِ على المسنَدِ إليه؛ وأنَّه مِن جِنسِ الفسادِ والانحرافِ الّذي يصدُرُ عادةً بسببِ الكُفرِ.

دِلالَةُ (أل) في الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في سياق الآيةِ:

الكافِرونَ باللهِ واقِعونَ في الشِّركِ لا محالةَ

اللّامُ في الاسم المَوصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ يُرادُ بها الجِنسُ المفيدُ العُمومَ؛ فهي شامِلَةٌ لكلِّ مَن كفرَ باللّهِ تعالى مِن أهلِ كُلِّ مِلَّةٍ.

نُكتَةُ إيثارِ التَّعبيرِ بِجُملَةِ الصِّلَةِ، فِعلًا ماضِيًا في الآية الكريمة:

تَحَقُّقُ الكُفرِ في المذكورين

جاءَت جملةُ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ للإيماءِ إلى حُدوثِ الكُفرِ وتحقُّقِهِ فيهم وتشبُّعِهِم مِنهُ، لتلبُّسهم به في الظّاهر والباطن.

فائِدَةُ حَذفِ مُتَعَلَّقِ الكُفرِ مِن سِيَاقِ الآيةِ الكريمة:

جُرأَةُ المُشركينَ على اعتقادِ ما لا يليقُ بالله

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾، وهو الأَمرُ الّذي كُفِرَ بهِ، لإرادَةِ العُموم؛ وذلكَ لأنَّ حَذفَ المُتعلَّقِ مُؤذِنٌ بالعُمومِ، والمعنى: كَفَروا بِجَميعِ ما وجبَ عليهِم أَن يُؤمِنوا بهِ شَرعًا.

دلالةُ تقديمِ المُتعلَّق ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ على ﴿يَعۡدِلُونَ﴾:

زيادةُ التَّشنيعِ والتَّقريعِ عليهم، منوطٌ بفسادِ الفعلِ والاعتقادِ

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾، تقدّمَ المُتعلَّق ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ على الفعل ﴿يَعۡدِلُونَ﴾، "أي: الّذين كفروا يَعْدِلون بربِّهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/128.

غيرَهُ، والَّذين كفروا مبتدأ، ويعدلون الخبر، والمفعولُ محذوفٌ"[1]، وفي التَّقديم زيادةُ التَّشنيعِ والتَّقريعِ؛ فقد خلقَ لهم السّماواتِ والأرضَ، وجعلَ الظُّلماتِ والنّورَ، ومع ذلك مالوا، وانحرفوا، وبربّهم عَدَلوا.

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾:

تـجـاوزُ الـكـفَّارِ عِـبـادةَ اللهِ إلى غـيـره، سـفـاهةٌ وتفاهةٌ

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، الباء هنا حرف جرّ، والغالبُ فيها الإلصاقُ، لكنّها هنا أفادَت معنى المجاوزة[2]؛ "بمعنى (عَن)، فلا يكون في الكلام مفعولٌ محذوفٌ، بل يكون ﴿يَعْدِلُونَ﴾ لازمًا؛ أي: يعدلون عنه إلى غيره"[3].

سرُّ العدولِ عنِ اسمِ الجلالةِ (الله)، إلى لفظ (الرَّبِّ):

بيانُ عِظَمِ جُرمِ الـكـافـريـن، وبـشـاعـةِ اعتقادِهم

لمّا ذكَّرهم باستحقاقه العبوديّة، لكمالِ أُلوهيَّتِه، وعظيمِ قدرته على الخلقِ والإيجادِ، وكان منهم الكفرُ والجحودُ - وضَحَ أنَّهم عَموا عن رؤيةِ دلائلِ ربوبيَّته، وآياتِ قدرته الشّاهدة على أنَّه ربُّهم الّذي أمدَّهم بالنّعم؛ فلذلك أوثر التَّعبيرُ بلفظ ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، لإظهار قبح عملِهم، وإنكارِ فعلِهم، وتسفيهِ عقولِهم، واستنهاضِ فطرتِهم الّتي كفّروها بجرائمهم، فإذا كانوا قد عَموا عن دلائلِ ربوبيّته، فَهُم عن جلائلِ ألوهيَّتِه أشدُّ عَمًى، وأضلُّ سبيلًا.

وجهُ إضافةِ الرَّبِّ إلى ضميرِ الغائبين ﴿بِرَبِّهِمْ﴾:

الـزِّيـادةُ في التَّعجيب بإقامة الحُجَّة عليهم في قُبحِ إنكارِهم

في إضافةِ الرّبِّ إلى ضميرِ الغائبين زيادةُ تعجيب؛ وإقامةُ الحُجّةِ عليهم في قُبْحِ إنكارهم؛ إذ إنَّ دلائلَ ربوبيَّته ظاهرةٌ في كلّ مَرْبوبٍ، وليسوا بمُطالَبين بإنعامِ النّظرِ في غيرهم حتَّى يؤمنوا، ويُقِرّوا بالرّبِّ ﷻ، بل إنَّ ما أمدَّهم به ربُّهم من أصول النِّعم وفروعها لكفيلٌ بإرجاعهم إلى دائرةِ الحقِّ، ونورِ الإيمانِ، وعلى الرّغم من وضوح ذلك يشركون به!

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/479.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 141.
(3) العكبريّ، التّبيان: 1/479.

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾:

الفعلُ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ أشملُ معنًى، وألصقُ بسياقِ التَّعبيرِ:

وردَ التّعبيرُ بالفعل ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ بالمعنى نفسه هنا، وفي قوله تعالى منَ السّورةِ نفسِها: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١٥٠﴾ [الأنعام: 150]، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠﴾ [النّمل: 60].

ولا يَعدِل هذا الفعلَ لفظٌ آخرُ؛ فلا يصلُح وضعُ (يكفرون) موضعَه؛ لِسَبق وصفهم بالكفر، ولا يحلُّ محلَّه (يُشركون)؛ لأنَّه لا يَعْدو وصْفَهم بأنَّهم جعلوا مع اللّه آلهةً أخرى، وهذا داخلٌ في دائرةِ الكفرِ المذكور.

فظهرَت مناسبةُ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ للسّياق؛ إذ إنَّ مادّتَه - كما سبق - يلزمُ عنها معنى الشّرك والكفر، ويزادُ عليه معنى الموازنةِ، والتَّساوي، ومحاولةِ التَّرجيح، وفي ذلك دعوةٌ إلى النَّظرِ، والتَّفكُّرِ، والتّأمُّل في دلائلِ الرّبوبيَّةِ، وفي آية سورة النَّمل المذكورة منَ الآيات العُلويَّة والأرضيَّة ما يدلُّ على جلاء تلك الدَّعوة، ويُسّرِ السّبيل إليها.

والفعل ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ مناسبٌ للموازنة بين ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورُۖ﴾؛ إذ إنَّ عدلَ المؤمن الّذي هو ضدُّ الظُّلم (نور)، وعدلَ الكافر الّذي هو مساواةُ ربِّه ﷻ بغيره (ظلمات)، فَعُدولُهم عنِ الإيمان بربِّهم دليلٌ على طَمْس بصيرتهم، ومساواتُهم الخالقَ بالمخلوق برهانٌ على النُّكران والكفران.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ في ﴿يَعۡدِلُونَ﴾:

الاستِمرارُ على الباطِلِ، رُغمَ ظُهورِ الأَدِلَّةِ على زَيفِهِ وتهافتِهِ

عُبِّر بالفعلِ المُضارِعِ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ للإشعارِ باستمرارِ شِركِهم ودوامِهم عليه مع ظُهورِ الآياتِ والبيِّناتِ الدّالَّةِ على خلافِه، وهذا دالٌّ على شدَّةِ عنادِ هؤلاء الكفَرَةِ وتَأَصُّلِ جُحودِهم.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»